﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: 28 - 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ الحِكمَةِ في بسطِ الرِّزْقِ وقَبْضِه، وتعقُّبه بإنزال المَطَرِ وقتَ الحاجَةِ إليه

لَمّا بَيَّنَ تَعالى أنَّهُ لا يُعْطيهم ما زادَ على قَدْرِ حاجَتِهم؛ لِأجلِ أنَّهُ عَلِمَ أنَّ تِلْكَ الزِّيادَةَ تَضُرُّهم في دينِهم؛ بَيَّنَ أنَّهم إذا احتاجوا إلى الرِّزْقِ؛ فإنَّهُ لا يَمنَعُهم مِنهُ[1]، وكانَ مِنَ النّاسِ مِمَّنْ خَذَلَهُ الإضْلالُ مَن يَقولُ: إنَّ ما النّاسُ فيه مِنَ المَطَرِ والنَّباتِ وإخْراجِ الأقْواتِ إنَّما هو عادَةُ الدَّهْرِ، فبَيَّنَ أنَّهُ سُبْحانَهُ هو الفاعِلُ لِذَلِكَ بِقُدْرَتِه واخْتيارِه، مِن أنَّهُ قَدْ يَحْبِسُ المَطَرَ عَنْ إبّانِه وإعادَتِه في وقْتِه وأوانِه؛ حَتّى يَيْأسَ النّاسُ مِنهُ، ثُمَّ يُنْزِلُهُ؛ إنْ شاءَ[2]، ولَمّا كانَ إنْزالُ الغَيْثِ جامِعًا بَيْنَ كَوْنِه نِعْمَةً وكَوْنِه آيَةً دالَّةً على بَديعِ صُنْعِ اللَّه تَعالى وعَظيمِ قُدْرَتِه المُقْتَضيَةِ انفرادَهُ بِالإلَهيَّةِ؛ انْتَقَلَ إلى ذِكْرِ آياتٍ دالَّةٍ على انْفِرادِ اللَّه تَعالى بِالإلَهيَّةِ، وهي آيَةُ خَلْقِ العَوالِمِ، وما فيها مِمّا هو مُشاهَدٌ لِلنّاسِ، وهَذا الانتقالُ اسْتِطْرادٌ واعْتِراضٌ بَيْنَ الأغْراضِ الَّتي سياقُ الآياتِ فيها[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْغَيْثَ﴾: (غيث) أصْلٌ صَحيحٌ، وهوَ الحَيا النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، يُقالُ: جادَنا غَيْثٌ، وهَذِه أرْضٌ مَغيثَةٌ ومَغْيوثَةٌ، وغِثْنا، أيْ: أصابَنا الغَيْثُ[4]، واسْتَغاثَني فُلانٌ، فأغَثْتُهُ، وقَدْ غاثَ اللّهُ البِلادَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310 - 312.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيث).

يُغيثُها غَيْثًا؛ إذا أنْزَلَ بها الغَيْثَ[1]، والغَيْثُ: الكَلَأُ يَنْبُتُ مِنَ المَطَرِ، ويُجْمَعُ على الغُيوثِ، والغياثُ: ما أغاثَكَ اللّهُ بِه[2]، والمَعْنَى المحوريُّ ماءٌ يَنْتَشِرُ مَطَرًا أو يَتوالَى مِنْ كَثْرَتِه[3]، والغَوْثُ يقال في النُّصرة[4]، والمُرادُ بالغَيْثِ هَهُنا: المَطَرُ، وسُمّيَ غَيْثًا؛ لأنَّهُ يُغيثُ الخَلْقَ[5].

2) ﴿قَنَطُواْ﴾: (قنط) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على اليَأسِ مِنَ الشَّيْءِ[6]، والقُنوطُ: الإياسُ من الخيرِ، ويُقالُ: شَرُّ النّاسِ الَّذين يُقَنِّطون النّاسَ من رحمةِ اللّه، أي: يُؤَيِّسونَهُم[7]، وقَنَط يَقْنِطُ ويَقْنُطُ قُنوطًا، وقَنِطَ قَنَطًا، وهوَ قانِطٌ: يَئِسَ[8].

3) ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾: (ولي) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، ومِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ[9]، والمَعْنَى المحوريُّ لُزومُ الشَّيْءِ شَيْئًا آخَرَ تَبَعًا لَهُ مَعَ نَحْوٍ مِنَ الاشْتِمالِ[10]، والوَلِيُّ اسمٌ مِنْ أسْماءِ اللّه الحُسْنَى: هوَ النّاصر، وقيلَ: المُتَوَلّي لأُمورِ العالَمِ والخَلائِقِ القائِمُ بِها، وولايَتُهُ تعالى وِلايَتانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالوَلايَةُ العامَّةُ: تَوَلِّي اللّه الخَلْقَ بِالمُلْكِ، والتَّدْبيرِ، والتَّقْديرِ، والوَلايَةُ الخاصَّةُ: تَوَلِّي اللّه المُؤْمِنينَ بِالمَحَبَّةِ، والتَّوْفيقِ، والنَّصْرِ، والتَّأييدِ، ونَحْوِ ذَلِكَ[11].

4) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: (حمد) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ وأصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ، يُقالُ: حَمِدْتُ فُلانًا أحْمَدُهُ، ورَجُلٌ مَحْمودٌ ومُحَمَّدٌ؛ إذا كَثُرَتْ خِصالُهُ المَحْمودَةُ غَيْرُ المَذْمومَةِ[12]، والحَمدُ للّه تَعالَى: الثَّناءُ عَلَيْهِ بِالفَضيلَةِ، وهوَ أخَصُّ مِنَ المَدْحِ، وأعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ[13]، ومَعْنَى اسم اللّه الحَميدِ، أي: هوَ المَحْمودُ عِنْدَ خَلْقِهِ بِما أوْلاهُم مِنْ نِعَمِه، وبَسَطَ لَهُم مِنْ فضْلِه، وهوَ الَّذي اسْتَوْجَبَ الحَمدَ مِنَ الخَلْقِ بِصَنائِعِه الحَميدَةِ إلَيْهِم وآلائِه الجَميلَةِ لَدَيْهِم[14]،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (غيث).
(2) الخليل، كتاب العين: (غيث).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غيث).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (غوث).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 28.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنط).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (قنط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمد).
(13) الرّاغب، مفردات القرآن: (حمد).
(14) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 4/ 711، و7/ 579.

وهوَ المَحْمودُ الَّذي اسْتَحَقَّ الحَمدَ بِأفْعالِه، وهوَ فعيلٌ بِمَعْنَى: مَفْعولٍ، وهوَ الَّذي يُحْمَدُ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، وفي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ؛ لأنَّهُ حَكيمٌ لا يَجْري في أفْعالِهِ الغَلَطُ، ولا يَعْتَرِضُهُ الخَطَأُ، فهوَ مَحْمودٌ على كُلِّ حالٍ[1].

5) ﴿بَثَّ﴾: (بثث) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَفْريقُ الشَّيءِ وإظْهارُهُ، واللَّهُ تَعالَى خَلَقَ الخَلْقَ، وبَثَّهُم في الأرْضِ لِمَعاشِهم، أي: فرَّقَهُم، وبَثَثْتُ الحَديثَ، أيْ: نَشَرْتُهُ، وأمّا البَثُّ مِنَ الحُزْنِ؛ فمِنْ ذَلِكَ أيْضًا؛ لأنَّهُ شَيْءٌ يُشْتَكَى، ويُبَثُّ، ويُظْهَرُ[2]، وبَثَّ الشَّيءَ والخَبَرَ يَبُثُّه، ويَبِثُّه بَثًّا، وأبَثَّه، بِمَعْنَى، فانْبَثَّ: فرَّقه، فتَفَرَّقَ[3]، والمَعْنَى المحوريُّ نَشْرُ ما كانَ مُجْتَمِعًا مُنْضَمًّا وتَفْريقُهُ[4]، ووضْعُ الأشْياءِ في أمكِنَةٍ كَثيرَةٍ[5]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ إشارَةٌ إلى إيجادِه تَعالَى ما لَم يَكُنْ مَوْجودًا وإظْهارِه إيّاهُ[6].

6) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دبب) أصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ مُنقاسٌ، وهوَ حَرَكَةٌ على الأرْضِ أخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى على الأرْضِ مِنَ الحيوانِ؛ فهوَ دابَّةٌ[7]، وهوَ اسمٌ لكلِّ حَيَوانٍ مُمَيَّزٍ وغيرِه، لِما يَعقل ولِما لا يَعقل[8]، وقيلَ: هو اسْمٌ لِما يُرْكَبُ، وتَصْغيرُها دويبَّةٌ، الياءُ ساكِنَةٌ وفيها إشْمامٌ مِنَ الكَسْرَةِ[9]، والمُرادُ بها في الآيَةِ، أيْ: شَيْءٌ فيه أهْلِيَّةُ الدَّبيبِ بِالحَياةِ مِنَ الإنسِ والجِنِّ والمَلائِكَةِ وسائِرِ الحَيَواناتِ على اخْتِلافِ أصْنافِهم وألْوانِهم وأشْكالِهم[10].

7) ﴿جَمْعِهِمْ﴾: (جمع) أصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على تَضامٍّ الشَّيْءِ[11]، يُقالُ: جَمَعَ الشَّيءَ عَنْ تَفْرِقةٍ يَجْمَعُه جَمعًا وجَمَّعَه وأجْمَعَه[12]، فالجَمعُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بِتَقْريبِ بَعْضِه مِن بَعْضٍ[13]،

(1) الخطابي، شأن الدّعاء، ص: 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بثث).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بثث).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بثث - بثبث).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 97.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بثث - بثبث).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (دب).
(9) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (دب).
(10) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 313.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(13) الرّاغب، مفردات القرآن: (جمع).

والمَعْنَى المحوريُّ: تَضامُّ أشْياءَ مُتَجانِسَةٍ كَثيرَةٍ تَلاقيًا أوْ تَلاحُمًا أوْ تَراكُمًا[1]، والمُرادُ بِجَمعِهم في الآيةِ: حَشْرُهم بَعْدَ البَعْثِ لِلْمُحاسَبَةِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ دَلائِلِ قُدْرَةِ الله إنْزالُ المَطَرِ، وخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ، وجَمعُ الخَلْقِ للحِسابِ

ساقَتِ الآيَتانِ الكَريمَتانِ ألْوانًا مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى على عِبادِه، وكُلُّها تَدُلُّ على وَحْدانيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه، فمِنْها أنَّهُ تعالى هوَ الَّذي يُنَزِّلُ المَطَرَ على عِبادِه، مِنْ بَعْدِ أنِ انْتَظَروهُ فتْرَةً طَويلَةً، حَتَّى ظَهَرَتْ على مَلامِحِهم عَلاماتُ اليَأسِ، وبَدَتْ على وُجوهِهم أماراتُ القُنوطِ، فيُنَزِّلُ الأمطارَ بَعْدَ يَأسِ النّاسِ مِنْ نُزولِها، ويَنْشُرُ رَحْمَتَهُ عَلَيْهِم عَنْ طَريقِ ما يَنْتُجُ عَنْ هَذِهِ الأمطارِ مِنْ خَيْراتٍ وبَرَكاتٍ وأرْزاقٍ، فهوَ تعالى الَّذي يَتَوَلَّى عِبادَهُ بِرَحْمَتِه وإحْسانِه، وهوَ كَذَلِكَ الحَميدُ، أي: المَحْمودُ على فِعْلِه، حَيْثُ أنْزَلَ على عِبادِه الغَيْثَ بَعْدَ أنْ يَئِسوا مِنْهُ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ لَوْنًا آخَرَ مِنْ ألْوانِ كَمالِ قُدْرَتِه، ومِنْها العَلاماتُ النّاصِعَةُ الدّالَّةُ على كَمالِ قُدْرَتِه، كَخَلْقِه لِلسَّماواتِ ولِلأرْضِ بِتِلْكَ الصّورَةِ الباهِرَةِ البَديعَةِ التي نُشاهِدُها بِأعْيُنِنا، وخَلْقِه أيْضًا لِما بَثَّ فيهما مِنْ دابَّةٍ، ولِما نَشَرَ، وفَرَّقَ فيهما مِنْ دوابَّ، لا يَعْلَمُ عَدَدَها إلّا اللهُ تَعالَى، ثُمَّ انْتَقَلَ النَّظْمُ للتَّذْكيرِ بِآيَةٍ أخْرَى مِنْ آياتِ قُدْرَتِه الباهِرَةِ، وهيَ أنَّهُ تعالى قادِرٌ قُدْرَةً تامَّةً على جَمعِ الخَلائِقِ يَوْمَ القيامَةِ لِلْحِسابِ والجَزاءِ، فهيَ آيَةٌ أُخْرَويَّةٌ غَيْبِيَّةٌ، في مُقابِلِ الآياتِ الدُّنْيَويَّةِ المُشاهَدَةِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ﴾ وعِلَّةُ الوَصْلِ:

الانْتِقالُ مِنَ الحَديثِ عنِ الرِّزْقِ إجْمالًا، إلى بَيانِ أهَمِّ أنْواعِه تَفْصيلًا

عَطَفَ النَّظْمُ الجَليلُ بالواوِ المُفيدَةِ للاسْتِئْنافِ جُمْلَةَ: ﴿وَهُوَ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 40.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 36 - 37.

ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُوا۟﴾، على جُملَةِ: ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ الغَيْثَ سَبَبُ رِزْقٍ عَظيم، وهو ما يُنَزِّلُهُ اللّه بِقَدَرٍ هو أعْلَمُ به، وفيه تَذْكيرٌ بِهَذِه النِّعْمَةِ العَظيمَةِ على النّاسِ الَّتي مِنها مُعْظَمُ رِزْقِهِمُ الحَقيقيِّ لَهُم ولِأنْعامِهِم[1]، فجاءَ العَطْفُ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ للتَّوَسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْن، ووُجِدَتْ بَيْنَهُما الرَّوابِطُ المَعْنَويَّةُ المُسَوِّغَةُ للعَطْفِ[2]، فهَذِه الجُملَةُ مِنْ تَمامِ مَعْنَى الجُملَةِ السّابِقَةِ؛ لأنَّها تُفيدُ أنَّ الرِّزْقَ في يَدِه تعالى ؛ لأنَّ الغَيْثَ هوَ الرِّزْقُ، وقَدْ سَمَّى اللّهُ الغَيْثَ رِزْقًا في قَوْلِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[3]، فجُملَةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ تَفْصيلٌ لِضَرْبٍ مِنْ ضُروبِ الرِّزْقِ، وهوَ الغَيْثُ، بَلْ هوَ أهَمُّ ضُروبِه؛ إذْ بِه تَقومُ الحَياةُ بِكُلِّ ما فيها مِنْ حَرَكَةٍ ونَماءٍ.

في تَعالُقِ الجُملَتَينِ بَيانٌ لِتَقْديرِ الرِّزْقِ مِنْ جِهَةٍ، وإغاثَةِ اللهِ للخَلْقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى

سرُّ الوَصْلِ بِالمُضْمَرِ (هوَ):

افْتَتَحَ البَيانُ القُرْآنيُّ الآيَةَ بَعْدَ الواوِ بِالضَّميرِ (هوَ) عَطْفًا على ما سَبَقَ، ويَجوزُ لُغَةً التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الجَلالَةِ، لَكِنَّهُ أرادَ أنْ تَرْتَبِطَ هَذِه الآيَةُ مَعَ الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لِما بَيْنَهُما مِنْ تَعالُقٍ؛ فإنَّ هَذِه الجُملَةَ مُتَّصِلَةٌ بِما أوْرَدَهُ سُبْحانَهُ مِنْ تَنْزيلِ الرِّزْقِ بِحِكْمَةٍ مُقَدَّرَةٍ تَقْديرًا دَقيقًا، فالضَّميرُ يَدْعَمُ العَلاقَةَ التَّرْكيبيَّةَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ في بَيانِ اقْتِدارِ اللّه تعالى، ويُفَصِّلُ الحَديثَ حولَ هَذِه النِّعْمَةِ.

تَشْويقُ السّامِعينَ لنعمةٍ عُظْمَى مِنْ نِعَمِ رَبِّ العالَمينَ هي نَعْمَةُ إنْزالِ الغَيْثِ

فائِدَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ بِالاسْمِ المَوْصولِ:

بَعْدَ أنِ اسْتَهَلَّ النَّظْمُ بِالضَّميرِ (هوَ)، أرْدَفَهُ بِالمُسْنَدِ، فجاءَ بِه اسْمًا مَوْصولًا، وفائِدَةُ ذِكْرِه على هَذا النَّمَطِ أنَّ فيه تَشْويقًا، وإثارَةً لِلنَّفْسِ في مَعْرِفَةِ جُملَةِ الصِّلَةِ؛ فإنَّ الاسْمَ المَوْصولَ لا يُدْرَكُ مَعْناهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.
(2) فيود، علم المعاني، ص: 475.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 151.

إلّا بِجُملَةِ الصِّلَةِ، فجاءَ بَعْدَهُ قَوْله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُواْ﴾ موَضِّحًا نِعْمَةً مِنْ أجَلِّ نِعَمِ اللّه على عِبادِه، وهي إنْزالُ الغَيْثِ.

الغَرَضُ مِنْ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْه والمُسْنَدِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

جاءَ النَّظْمُ بِتَعْريفِ طرفَي الإسْنادِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ اللّهَ وحْدَهُ دونَ سِواهُ، هوَ الَّذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ، وفي هَذا الإسْنادِ قَصْرٌ حَقيقيٌّ مِنْ بابِ قَصْرِ الصِّفَةِ على المَوْصوفِ، وهوَ قَصْرٌ مُسْتَفادٌ مِنْ تَعْريفِ طرفَي الإسْنادِ بِذِكْرِ ضَميرِ الفَصْلِ والاسْمِ المَوْصولِ.

اخْتِصاصُ اللّهِ وحْدَهُ بِإنْزالِ الغَيْثِ دافِعٌ لِشُكْرِه والاعْترافِ بِفَضْلِه تعالى

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِأُسْلوبِ القَصْرِ بِطَريقِ تَعْريفِ الطَّرَفَيْنِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ جَرْيًا على طَريقَةِ القُرْآنِ في الحَديثِ عَنِ الأحْداثِ الَّتي لا تَحْدُثُ إلّا بِإرادَةِ اللّه، لِما في ذَلِكَ مِنَ الدَّلالَةِ على الاخْتِصاصِ، فمَجيءُ المُسْنَدِ اسْمًا مَوْصولًا؛ لإفادَةِ اتِّصافِ اللّه تَعالى بِمَضْمونِ صِلَتِه، وأنَّهُ شَأْنٌ من شُؤونِ اللّه تَعالى، فهوَ ثابِتٌ لَهُ لا يَتَخَلَّفُ عَنْه؛ لأنَّهُ المُناسِبُ لِقُدْرَتِه وعظَمَةِ شَأنِه وغِناهُ عَنْ خَلْقِه[1]، فلَيْسَ هُناكَ مَنْ يُنَزِّلُ الغَيْثَ بَعْدَ القُنوطِ إلّا اللّه ﷻ، كَما أشارَ استِخْدامُ الاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه إلى أنَّ إنْزالَ الغَيْثِ أمرٌ مَعْروفُ النِّسْبَةِ لَهُ تعالى مَشْهورٌ بِأنَّهُ مِنْ آثارِ رَحْمَتِه، فلا يُنْكِرُ هَذِه النِّعمةَ إلّا الجاحِدونَ، فصيغَةُ القَصْرِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ تُفيدُ قَصْرَ القَلْبِ؛ لأنَّ في السّامِعينَ مُشْرِكينَ يَظُنّونَ نُزولَ الغَيْثِ من تَصَرُّفِ الكَواكِبِ، وفيهِمُ المُسْلِمونَ الغافِلونَ، نُزِّلوا مَنزِلَةَ مَن يَظُنُّ نُزولَ الغَيْثِ مَنوطًا بِالأسْبابِ المُعْتادَةِ لِنُزولِ الغَيْثِ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ يَعْتَقِدونَ أنَّ المَطَرَ من تَصَرُّفِ أنْواءِ الكَواكِبِ، فهَذا القَصْرُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُشْرِكينَ قَصْرُ قَلْبٍ أصْليٌّ، وهو بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمينَ قَصْرُ قَلْبٍ تَنْزيليٌّ[2].

إنْزالُ الغَيْثِ حَقيقَةٌ إلَهيَّةٌ راسِخَةٌ، لا يُنْكِرُها إلّا الجاحِدونَ أوِ الغافِلونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ ﴿يُنَزِّلُ﴾:

استِئْثارُ الله بأمرِ الرِّزْقِ مِنَ الأُمورِ العَلِيَّةِ، حَتَّى لا تَضِلَّ فيها أفْهامُ البَرِيَّةِ

عَبَّرَ النَّظْمُ عَنْ إغاثَةِ الله تعالى للخَلْقِ بالغَيْثِ بِفِعْلِ ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ إذِ الأَصْلُ في النُّزولِ انحِطاطٌ من عُلوٍّ[1]، ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ الغَيْثَ في السَّماءِ، وأنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْكُم مِنْ عُلوٍّ مِنْ عِنْدِ خالِقِكُم، وعَلْياؤُهُ سُبْحانَهُ عَلْياءُ مَكانَةٍ، ولَيْسَتْ عُلوَّ مَكانٍ، وفيه كَذَلِكَ رَبْطٌ بَيْنَ تَنَزُّلِ الغَيْثِ وتَنَزُّلِ الرِّزْقِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، كَما أفادَ التَّعبيرُ بِالإنْزالِ الإشْعارَ بتفضُّلِ الله تعالى وظهورِ منَّتِه على النّاسِ، فالتَّنْزيلُ على معنى الإغاثَةِ والإنْعامِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ دونَ (المَطَرِ):

خَصَّصَ القُرآنُ لَفْظَ المَطَرِ للعَذابِ، ولَفْظَ الغَيْثِ للخَيْرِ والبَرَكَةِ والنَّماءِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِكَلِمَةِ ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ دون كَلِمَةِ (المَطَرِ)؛ لأنَّ كَلِمَةَ الغَيْثِ، وإنْ كانَتْ قَريبَةَ الدَّلالَةِ مِنْ كَلِمَةِ المَطَرِ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى العامُّ؛ فإنَّها مَخْصوصَةٌ بِالنّافِعِ مِنَ المَطَرِ[2]، وعلى هَذا المَعْنَى جَرَى النَّظْمُ القُرْآنيُّ[3].

دَلالَةُ التَّعْريفِ في المَفْعولِ بِهِ ﴿ٱلْغَيْثَ﴾:

الغَيْثُ إمّا مُطْلَقُ الغَيْثِ، أوِ الغَيْثُ المَعْهودُ لَهُم

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ في الآيَةِ مُعَرَّفَةً باللّامِ، واللّامُ هَهُنا إمّا أنْ تَكونَ جِنْسِيَّةً، تُشيرُ إلى جِنْسِ الغَيْثِ، أيْ: مُطْلَقِه، وإمّا أنْ تَكونَ للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، أي: هوَ الغَيْثُ الَّذي عَهِدتُم آثارَهُ في إحياءِ الأَرْضِ وإنْباتِ العُشْبِ والكَلَأِ، فهوَ المَطَرُ الَّذي يُغاثُ به النّاسُ، فيُجابونَ إلى ما سَألوا، ويُغاثونَ ظاهرًا، كَما يَنْزِلُ الوَحْيُ الَّذي يُغاثونَ به ظاهرًا وباطِنًا[4].

مَعْنَى مِنْ ودَلالَتُها في: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾:

جاءَتْ ﴿مِنۢ﴾ لابْتِداءِ الغايَةِ؛ لأنَّ مِن تَمامِ حِكْمَةِ الله تعالى أنْ يبتَدِئَ إنْزالَ الغَيْثِ بَعْدَ أنْ يَبْلُغَ بالنّاسِ اليَأْسُ مَبْلَغَهُ، فيُمعِنوا في

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (نزل).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 32.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310.

الضَّراعَةِ والدُّعاءِ، فيَكون نزولُهُ دَليلًا بالِغًا لَهُم على وجودِ اللّه الواحِدِ القَهّارِ، وعادَةً ما يَكونُ ذَلِكَ لإرادَةِ الابْتِلاءِ والامتِحانِ والتَّمحيصِ، فأمّا المُصَدِّقونَ المَوَحِّدونَ؛ فيَزيدُهُم نزولُ الغَيْثِ إيمانًا، وأمّا المُكَذِّبونَ والغافِلونَ اللاهونَ؛ فيَقولونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا، كَما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ، فيَقولُ اللّهُ: "أصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ بي، فأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِرَحْمَةِ اللّهِ وبِرِزْقِ اللّهِ وبِفَضْلِ اللّهِ؛ فهُوَ مُؤْمِنٌ بي كافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَجْمِ كَذا؛ فهوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كافِرٌ بي"[1].

ابْتِداءُ نُزولِ الغَيْثِ بَعدَ القَحْطِ ابْتِلاءٌ وامتِحانٌ وتمحيصٌ

سِرُّ تَقْييدِ الفِعْلِ بِالظَّرْفِ ﴿بَعْدِ﴾:

قَيَّدَ النَّظْمُ الجَليلُ إنْزالَ الغَيْثِ بالظَّرْفِ ﴿بَعْدِ﴾؛ للتَّذْكيرِ بِكَمالِ النِّعْمَةِ[2]، أي: بَعْدَ أنْ يَئِسوا مِن إنْزالِه، وعَلِموا أنَّهُ لا يَقْدِرُ على إنْزالِهِ غَيْرُهُ، ولا يُقْصَدُ فيه سِواهُ؛ ليَكونَ ذَلِكَ أدْعى لَهم إلى الشُّكْرِ[3]؛ لأنَّ الفَرَحَ بِحُصولِ النِّعْمَةِ بَعْدَ البَلِيَّةِ أتَمُّ، فكانَ إقْدامُ صاحِبِهِ على الشُّكْرِ أكْثَرَ[4].

إنْزالُ الغَيْثِ بَعْدَ اليَأسِ أدْعَى لاستِجْلابِ الشُّكْرِ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿مَا﴾:

عَبَّرَ البَيانُ القُرْآنيُّ بـ﴿مَا﴾ المَصْدَرِيَّةِ[5] مَعَ الفِعْلِ الماضي ﴿قَنَطُوا﴾، وعَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ (مِنْ بَعْدِ قُنوطِهم)؛ وذَلِكَ لأنَّ المَصْدَرَ المُؤَوَّلَ يَتَضَمَّنُ الدَّلالَةَ على الزَّمَنِ فضْلًا عَنِ الدَّلالَةِ على الحَدَثِ[6] ووُقوعِه مِنَ النّاسِ، وهو فِعْلُ القُنوطِ مِنْ إنْزالِ الغَيْثِ، فكانَ التَّعْبيرُ بـ﴿مَا﴾ المَصْدَرِيَّةِ دَلالةً على ثُبوتِ وُقوعِ القُنوطِ مِنْهُم.

لا يتَذَكَّرُ غالِبُ البَشَرِ رَبَّهُم إلّا في حالِ الشِّدَّةِ واليَأسِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، حديث رقم: (4200).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 39.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599.
(5) الجمل، حاشية على تفسير الجلالين: 7/ 59.
(6) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 147.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿قَنَطُواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

انقِطاعُ الغَيْثِ مِـنْ دَواعـي شـدَّةِ اليَأسِ، فهو دَليلٌ على حُـصـولِ الـضُّـرِّ والبَأسِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ القُنوطِ دونَ (اليَأسِ)؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على انْقِطاعِ الأمَلِ بالكُلِّيَّةِ؛ إذْ لا يُقال: قَنَط إلّا إذا اشتدَّ يَأسُهُ مِنَ الشَّيْءِ[1]، وقيلَ: اليَأسُ: هوَ قَطْعُ الرَّجاءِ والأمَلِ مِنْ تَحْقيقِ أمرٍ مُعيَّنٍ، وهوَ شُعورٌ يَنْشَأُ في القَلْبِ والعَقْلِ، وأمّا القُنوطُ؛ فهوَ تَأثيرُ اليَأسِ عِنْدَما يَظْهَرُ على بَدَنِ الإنسانِ بِشَكْلٍ ظاهرٍ في مَلامِحِه وتَصَرُّفاتِه[2]، وعَبَّرَ بِصيغَةِ المُضيِّ؛ للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ وُقوعِ القُنوطِ مِنْهُم على جِهَةِ الثَّباتِ واليَقينِ، فلا يُنْكِرُ أحَدٌ مِنْهُم ما أصابَهُ مِنْ غَمٍّ وهَمٍّ بِسَبَبِ انْقِطاعِه.

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَيَنشُرُ﴾:

في نَشْرِ الغَيْثِ بَـيـانٌ لِمَـزيـدِ العِـنـايَةِ، فإذا لم يُنْشَرْ؛ لَقَلَّ الانْتِفاعُ بِه، ولَمَ تَتَحَقَّقِ الغايَةُ

عَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ جُملَةَ: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ على جُملَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾؛ لِبَيانِ مَزيدِ الامتِنانِ بِإنْزالِ الغَيْثِ، فإنْزالُ الغَيْثِ - في حَدِّ ذاتِه - نِعْمَةٌ كُبْرَى، وإنْزالُهُ بَعْدَ القُنوطِ نِعْمَةٌ أُخْرَى، ثُمَّ يَأتي نَشْرُهُ بَعْدَ القُنوطِ بِوَصْفِه نِعْمَةً ثالِثَةً، فلَوْ أنْزَلَهُ في مَكانٍ واحِدٍ دونَ نَشْرٍ؛ لَقَلَّ الانْتِفاعُ بِه، فجاءَ العَطْفُ بالنَّشْرِ ليُبيِّنَ مزيدَ العِنايَةِ الإلَهيَّةِ بالخَلْقِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ(يَنْشُرُ) مادَّةً وصيغَةً:

في الـتَّـعْـبـيرِ بـالـنَّـشْـرِ دَلالَـةٌ على تَعْميمِ أثَرِ الغَيْثِ وظُهورِ بَـرَكَـتِـه في كُـلِّ مَظاهِرِ الحَياةِ

جاءَ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ (يَنْشُرُ)؛ تَعْميمًا لأثَرِ الغَيْثِ على النَّباتِ وغَيْرِه، فمِنْ مَظاهِرِ رَحْمَةِ اللّه تعالى نَشْرُ الغَيْثِ على السَّهْلِ والجَبَلِ، فيَنْزِلُ مِنَ السَّحابِ المَحْمولِ بالرِّيحِ مِنَ الماءِ ما يَملأُ الأرْضَ، بِحَيْثُ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْه الخَلائِقُ ما أطاقوا حَملَهُ، فتُصْبِحُ الأرْضُ ما بَيْنَ غُدْرانٍ وأنْهارٍ، ونَباتٍ ونَجْمٍ وأشْجارٍ، وحَبٍّ وثِمارٍ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَنافِعِ الصِّغارِ والكِبارِ، فما أجْلَفَ مَن يُنْكِرُ إخْراجَهُ

(1) النّحاس، معاني القرآن: 6/ 314.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 5 - 6.

المَوْتى مِنَ القُبورِ، أوْ يَحيدُ مِن ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الغُرورِ[1]، وأتَى بِصيغَةِ المُضارَعَةِ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ في نَشْرِ آثارِ الرَّحْمَةِ الإلَهيَّةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: (يَنْشُرُ):

أتَى البَيانُ القُرْآنيُّ بالفعلِ (يَنْشُرُ) على طريقِ الاسْتِعارَةِ، لإفادَةِ مَعْنَى التَّوْسيعِ والامتدادِ في أثَرِ الغَيْثِ ومَنافِعِه[2]، فالمُتَأمِّلُ في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ يَراها تصوِّرُ جانبًا مِنْ فضْلِ اللّه على عِبادِه بِطَريقَةٍ مَحْسوسَةٍ، فالتَّعْبيرُ بالغَيْثِ يُشْعِرُ بالغَوْثِ والنَّجْدَةِ بَعْدَ أنْ فقَدَ النّاسُ الأمَلَ في ذَلِكَ، والتَّعْبيرُ بالقُنوطِ يُشْعِرُ بأنَّ آثارَ الضّيقِ قَدْ ظَهَرَتْ على وُجوههم، والتَّعْبيرُ بقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، يُشْعِرُ بانْتِشارِ الرَّجاءِ والفَرَحِ والانْشِراحِ على الوُجوهِ بَعْدَ أنْ حَلَّ بها القُنوطُ[3].

امتِدادُ آثارِ الرَّحْمَةِ إلى نُفوسِ العِبادِ بَعْدَ الضّيقِ والكَرْبِ والعُبوسِ

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بالمَجازِ المُرْسَلِ في: ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾:

جاءَ النَّظْمُ الكَريمُ بِنَشْرِ الرَّحْمَةِ بعدَ ذِكرِ إنْزالِ الغَيثِ، والظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالرَّحْمَةِ هَهُنا: مَنافِعُ الغَيْثِ وآثارُهُ في كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّهْلِ والجَبَلِ والنَّباتِ والحَيَوانِ، أوْ رَحْمَتُهُ الواسِعَةُ المُنْتَظِمَةُ لِما ذُكِرَ انتِظامًا أوَّليًّا[4]، وقالَتْ فِرْقَةٌ: أرادَ بالرَّحْمَةِ: المَطَر، وعَدَّدَ النِعْمَةَ بِعَيْنِها بِلَفْظَيْنِ، الثّاني مِنهُما يُؤَكِّدُ الأوَّلَ، وقالَتْ فِرْقَةٌ: الرَّحْمَةُ في هَذا المَوْضِعِ: الشَّمسُ، فذَلِكَ تَعْديدُ نِعْمَةٍ غَيْرِ الأولى، وذَلِكَ أنَّ المَطَرَ إذا ألَمَّ بَعْدَ القَنَطِ؛ حَسُنَ مَوْقِعُهُ، فإذا دامَ؛ سُئِمَ، فتَجيءُ الشَّمسُ بَعْدَهُ عَظيمَةَ المَوْقِعِ[5]، فكلمةُ ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ كلمةٌ شاملةٌ، وهي مَجازٌ مُرْسَلٌ عن كلِّ فعلٍ فيه خيرٌ، وفيه بَرٌّ، وفيه عطاءٌ وإحسانٌ، ولذلك فُسِّرَتْ مرَّةً بالمطر، وهوَ صَحيحٌ أوْ بالدِّفْءِ بعدَ نزولِ الغيثِ،

بعدَ القَحْطِ والكَرْبِ والظَّلامِ يأتي النّورُ والضّياءُ والنَّماءُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 310.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 36 - 37.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 36.

وهوَ صَحيحٌ، أو بِطُلوعِ الشَّمسِ بعدَ المطرِ، وهكذا، وهذِه الكلماتُ الجامعةُ من أهمِّ أدَواتِ الإيجازِ، وحينَ تَقَع مَوقِعَها الأشبَه بها تَكونُ مِنَ البَلاغَةِ بِمَكانٍ[1].

صِحَّةُ التَّفْسيرِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾:

في الآيَةِ فنٌّ صِحَّةِ التَّفْسيرِ، وهوَ أنْ يَأتيَ المُتَكَلِّمُ في أوَّلِ كَلامِه بِمَعْنًى لا يَسْتَقِلُّ الفَهْمُ بِمَعْرِفَةِ فَحْواهُ، إمّا أنْ يَكونَ مُجْمَلًا يَحْتاجُ إلى تَفْصيلٍ أوْ موَجِّهًا يَفْتَقِرُ إلى تَوْجيهٍ، أوْ مُحْتَمِلًا يَحْتاجُ المُرادُ مِنْهُ إلى تَرْجيحٍ لا يَحْصُلُ إلّا بتَفْسيرِه وتَبْيينِه، ووُقوعُ التَّفْسيرِ يَأتي في الكَلامِ على أنْحاءٍ تارَةً يَأتي بَعْدَ الشَّرْطِ أوْ بَعْدَ ما فيه مَعْنَى الشَّرْطِ، وطَوْرًا بَعْدَ الجارِّ والمَجْرورِ - كَما في هَذِه الآيَةِ - وقَدْ جاءَتْ صِحَّةُ التَّفْسيرِ فيها مُؤْذِنَةً بِمَجيءِ الرَّجاءِ بَعْدَ اليَأسِ، والفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، والمَسَرَّةِ بَعْدَ الحُزْنِ؛ ليَكونَ ذَلِكَ أحْلَى مَوْقِعًا في القُلوبِ[2].

الـفَـرَجُ بَـعْـدَ الشِّدَّةِ، والمَسَرَّةُ بَعْدَ الحُزْنِ مِنْ جَميلِ نِعَمِ الله

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ بواوِ الاسْتِئْنافِ قَوْلَه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ على قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا أنْكَرَ عَلَيْهِم فيما مَضى اتِّخاذَ ولِيٍّ مِن دونِه بِقَوْلِه تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى: 9] أثْبَتَ أنَّهُ تعالى هو الوَلِيُّ، وتَعَرَّفَ إلَيْهِم بِآثارِه الَّتي حَوَتْ أفانينَ أنْوارِه، وكانَتْ كُلُّها في غايَةِ الكَمالِ موجِبَةً لِلْحَمدِ المُتَواتِرِ المنوالِ[3].

إثْـبـاتُ الـولايَـةِ الخالِصَةِ لله ردٌّ بالِغٌ على اتِّخاذِ الأوْلياءِ مِنْ دونِه

الغَرَضُ مِنَ القَصْرِ بِطَريقِ تَعْريفِ الطَّرَفَيْنِ في: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾:

جاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بِتَعْريفِ الطَّرَفَيْنِ، فجاءَ الطَّرَفُ الأوَّلُ (هوَ) ضَميرًا، وهوَ أعْرَفُ المَعارِفِ، وجاءَ الطَّرَفُ الثّاني مَعَرَّفًا بالألِفِ واللّامِ، وذَلِكَ للدَّلالَةِ على أنَّ

آثـارُ الأُلـوهـيَّـةِ نـاطِـقَـةٌ بِـعِـزِّ الوِلايَةِ لله، فهوَ الوَلِيُّ وحْدَهُ، ولا وليَّ سِواهُ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 152.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.

مَن هَذِه أفعالُهُ، فهو الَّذي يَنْفَعُ؛ إذا والَى، وتُحْمَدُ أفعالُهُ ونِعَمُهُ، لا كالَّذي لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ مِن أوثانِكم[1].

سِرُّ الاقْتِرانِ في: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

قَرَنَ البَيانُ القُرْآنيُّ بَيْنَ صِفَتَي ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دونَ غَيْرِهما لِمُناسَبَتِهما لِلإغاثَةِ، وعَبَّرَ بِالوَلِيِّ؛ لأنَّ الوَلِيَّ يُحْسِنُ إلى مَواليه، ولأنَّهُ هوَ الَّذي يملكُ العَطاءَ والمَنْعَ، ويَملِكُ أنْ يَسوقَ السَّحابَ، وأنْ يُنَزِّلَ مِنَ السَّماءِ رزقًا، وأنْ يَضَعَ في يَدِ كُلِّ عَبْدٍ مِن عِبادِه ما يُصْلِحُ به شَأنَهُ، ولأنَّ الحَميدَ هوَ الَّذي يُعْطي ما يُحْمَدُ عَلَيْه، وجاءَ وصْفُ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ على وزْنِ (فَعيلٍ) بِمَعْنى مَفْعولٍ[2].

استِحْقاقُ الوِلايَةِ والحَمدِ لله بِإنْعامِه على العِبادِ وإغاثَتِه إيّاهُم

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جاءَتِ الواوُ عاطِفَةً مُفيدَةً للاستِئْنافِ[3] في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فعَطَفَتْهُ على قَوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، وجاءَ العَطْفُ هَهُنا امتِدادًا لِلكَلامِ الَّذي مَضَى ومُتَمِّمًا لَهُ، وبَيانُ ذَلِكَ أنَّ الكَلامَ الَّذي مَضَى هوَ بَيانٌ لِشَأنِ اللّه مَعَ عِبادِه في آخِرَتِهم وفي دُنْياهُم، بِذِكْرِ البَسْطِ في الرِّزْقِ، ونُزولِ الغَيْثِ مِنَ السَّماءِ، فناسَبَ ذَلِكَ أنْ يُقْرَنَ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ؛ لأنَّهُ بمنزلةِ الدَّليلِ الكُلِّيِّ الشّامِلِ؛ لِما سَبقَهُ مِنْ آياتِ اللّه تَعالى الَّتي امتنَّ بها على خَلقِه، ولِما فيها مِنْ لَفْتِ انْتِباهِ الإنْسانِ إلى السَّماواتِ والأرْضِ الَّتي تُحيطُ به مِنْ كُلِّ جانِبٍ[4].

الـتَّـدَرُّجُ في إثْـبـاتِ كَـمـالِ الأُلـوهـيَّـةِ مِـنَ الأدِلَّـةِ الجُزْئِيَّةِ إلى الأدِلَّةِ الكُلِّيَّةِ الشّامِلَةِ

مَعْنَى (مِنْ) ودَلالَتُها في: ﴿وَمِنْ﴾:

جاءَتْ (مِنْ) تَبْعيضيَّةً[5] في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ

ذِكْرُ بَعْضِ آياتِ اللّه الدّالَّةِ على أُلوهيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 93.
(4) أبو موسى، آل حم: 154 - 155.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشورى، ص: 244.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذْ لَمّا كانَ ما مَضى مِن بَسْطِ الرِّزْقِ وقَبْضِه، وإنْزالِ الغَيْثِ وحَبْسِه مِنَ الآياتِ العَظيمَةِ، فقَدْ عَمَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِذِكْرِ ما ذَلِكَ بَعْضٌ مِنهُ، وهو دالٌّ على جَميعِ ما خَتَمَ به الآيَةَ السّالِفَةَ مِنَ الحَمدِ الَّذي هو الاتِّصافُ بِجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، فكلُّ ذَلِكَ مِن آياتِ اللّه الدّالَّةِ على قُدْرَتِه واخْتيارِه، وأنَّهُ هو الَّذي يُحْيي هَذا الوُجودَ[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ المُسْنَدَ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لِبَيانِ الاهْتِمامِ بكونِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ أهَمِّ العَلاماتِ الواضِحَةِ على قُدْرَتِه[2]، والأدِلَّةِ البَيِّنَةِ على ألوهيَّتِه تعالى وعلى استِحْقاقِه للحَمدِ والوِلايَةِ، بِما فيهما مِنْ عَجائِبِ الصَّنائِعِ، فإنَّها بِذاتِها أوْ صِفاتِها تَدُلُّ على شُؤونِه العَظيمَةِ[3].

اهْتِمامُ النَّظْمِ بِتَقْديمِ الآياتِ لِكونِها عَلاماتٍ لا ينْكِرُها عَقْلٌ سَلِمَ مِنَ الآفاتِ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجَمعِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جاءَتْ كلِمَةُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جَمعًا للتَّكْثيرِ، ففيها دَلالَةٌ على أنَّ آياتِ اللّه تعالى الشّاهِدَةَ على وحْدانيَّتِه والدّالَّةَ على كَمالِ قُدْرَتِه كَثيرَةٌ كَثْرَةً لا يُحْصيها عَدٌّ، وفي إيرادِها جَمعًا كَذَلِكَ حَثٌّ للعُقولِ على التَّدَبُّرِ في هَذِه الآياتِ والعلاماتِ بِما يُقَوّي الاعْتِقادَ السَّليمَ.

آياتُ اللّه الدّالَّةُ على وحْدانيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه لا يُحْصيها عَدٌّ

الغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ في المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

في إضافَةِ النَّظْمِ الحَكيمِ لَفْظَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى كَلِمَةِ ﴿خَلۡقُ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ، أي: السَّماواتِ المَخْلوقَةِ[4]، وفيه رَدٌّ على مَنْ قالَ بِقِدَمِ العالَمِ، وزَعَمَ أنَّ

تَأكيدُ أنَّ كُلَّ ما في الكَوْنِ مَخْلوقٌ لله ﷻ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 255.
(3) حقي، روح البيان: 8/ 321.
(4) حقي، روح البيان: 8/ 321.

السَّماواتِ والأرْضَ أزَليَّتانِ، فمَن لَهُ أدْنى إنْصافٍ وشُعورٍ يَجْزِمُ باسْتِحالَةِ صُدورِها مِنَ الطَّبيعَةِ العَديمَةِ الشُّعورِ[1].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالطِّباقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

في الطِّباقِ حَثٌّ على إدامَةِ التَّفَكُّرِ وطولِ النَّظَرِ في كَثْرَةِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرْضِ

بَينَ لَفْظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولَفْظِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ طِباقٌ يُسْهِمُ في تَنْشيطِ الفاعِليَّةِ الإدْراكيَّةِ لأذْهانِ السّامِعينَ والمُتَلَقّينَ، ويَحُثُّهُم على التَّفَكُّرِ في بَديعِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرْضِ وتَعدُّدِ ألْوانِها وأنْواعِها، ويوقِظُ الإحْساسَ بِعَظَمَةِ اللهِ ﷻ في هذا الخَلْقِ البَديعِ، فأضْفَى الطِّباقُ على النَّظْمِ الجَليلِ حُسْنًا وجَمالًا، وزادَهُ رَوْنَقًا وبَيانًا.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ:

خَلْقُ اللهِ للسَّماواتِ والأرْضِ حَقيقَةٌ ثابِتَةٌ لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّرُ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتأكيدِ مَضْمونِ الخِطابِ، ولِلدَّلالَةِ على ثُبوتِ ذَلِكَ المَعْنَى، وكَوْنِهِ حَقيقَةً راسِخَةً لا تَتَغَيَّرُ بِمُرورِ الزَّمانِ، كَما أنَّ في جَعْلِها اسْميَّةً مُتَضَمِّنَةً تِلْكَ الأفاعيلَ العَظيمَةَ، وما تَبِعَها مِنَ المَذْكوراتِ لاحِقًا؛ إشارَةً إلى تَرْبيَةِ المَهابَةِ، فهيَ تَذْكيرٌ مُؤَيَّدٌ بِالعِبَرِ على عَظيمِ آلاءِ اللهِ.

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَمَا بَثَّ﴾:

بَثُّ الخَلْقِ في السَّماواتِ والأرْضِ تَذْكيرٌ آخَرُ بِعَظَمَةِ قُدْرَتِه

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ والمُرادُ: ومِن آياتِهِ خَلْقُ ما بَثَّ، أوْ هيَ مَعْطوفَةٌ على ﴿خَلْقُ﴾، وعلى ذَلِكَ يَكونَ المُرادُ: ومِن آياتِهِ ما بَثَّ[2]، وقَدْ أفادَ العَطْفُ التَّذْكيرَ بِدَليلٍ آخَرَ مِنْ أدِلَّةِ وحْدانيَّتِه وآياتِ قُدْرَتِه وعَظَمَتِه، وهوَ تَصَرُّفُهُ تعالى فيما خَلَقَ في السَّماواتِ والأرْضِ بالبَثِّ والنَّشْرِ والتَّفْريقِ، ثُمَّ الإحْياءِ والجَمعِ والحِسابِ، حَسْبَ مَشيئَتِه وحْدَهُ تعالى.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.

مَعْنَى (ما) ودَلالَةُ التَّعْبيرِ بها دونَ (الَّذي) في: ﴿وَمَا بَثَّ﴾:

تَعَدُّدُ الأجْناسِ المَبْثوثَةِ وكَثْرَتُها مِنْ أعْظَمِ الأدِلَّةِ على كَمالِ عَظَمَتِه تعالى

(ما) في الآيةِ على وجْهَين، **الأوَّلُ**: أنَّها اسْمٌ مَوْصولٌ مَبْنيٌّ مَعْطوفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فهوَ في مَحَلِّ جَرٍّ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ في مَحَلِّ رَفْعٍ عَطْفًا على ﴿خَلْقُ﴾ على حَذْفِ مُضافٍ، أيْ: و(خَلْقُ ما بَثَّ)، **والوَجْهُ الآخَرُ**: أنْ تَكونَ (ما) مَصْدَريَّةً، أيْ: (وَمِنْ آياتِه بَثُّهُ)؛ فتَكونُ (ما) وما بَعْدَها في تَأويلِ مَصْدَرٍ، وهوَ مَعْطوفٌ على ﴿خَلْقُ﴾ مَرفوعٌ مِثْلُهُ[1]، والتَّقْديرُ بالموصوليَّةِ أظْهَرُ، ولا حاجَةَ عَلَيْهِ إلى تَقْديرِ مُضافٍ[2]، وفي التَّعْبيرِ بِـ(ما) المَوصولَةِ دَلالَةٌ على تَعَدُّدِ الأجْناسِ المَبْثوثَةِ في السَّماواتِ والأرْضِ وتَنَوُّعِها، وقَدْ آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بِها دونَ الاسمِ المَوْصولِ (الَّذي)؛ لأنَّ في اتِّساعِ الألِفِ في آخِرِها ما يُشيرُ إلى كَثْرَةِ الأجْناسِ[3] والأنواعِ المَبْثوثَةِ الدّالَّةِ على كَمالِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالماضي ﴿بَثَّ﴾:

تَحَقُّقُ البَثِّ فيما مَضى، داعٍ للعُقولِ إلى الإيمانِ فيما سَيَأتي

عَبَّرَ النَّظْمُ الكَريمُ عَنْ تَفْرِقَةِ الدَّوابِّ ونَشْرِها بصيغَةِ المُضيِّ ﴿بَثَّ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ هَذا البَثِّ في زَمَنِ الماضي، فقَدْ وقَعَ البَثُّ، وشاهَدَتْهُ العُيونُ، وتَيَقَّنَتْ مِنْهُ العُقولُ، على هَذا المِنوالِ الغَريبِ مِنَ الحِسِّ والحَرَكَةِ بالاخْتيارِ، مَعَ التَّفاوُتِ في الأشْكالِ، والقُدورِ والهَيْئاتِ والأخْلاقِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّقْصِ والكَمالِ، فكانَ تَحَقُّقُهُ داعيًا للإيمانِ بِوَحْدانيَّةِ اللّه وقُدْرَتِه وكَمالِ عَظَمَتِه[4].

مَعْنَى (في) ودَلالَتُها في: ﴿فِيهِمَا﴾:

شُمولُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ لِجَميعِ الخَلْقِ في السَّماواتِ والأرْضِ

عبَّرَ البَيانُ القُرْآنيُّ عَنِ اشْتِمالِ السَّماواتِ والأرْضِ على جَميعِ المَخْلوقاتِ بحَرفِ (في) المُفيدِ للظَّرْفيَّةِ، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا كانَتِ الأرْضُ

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 93 - 94.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(3) السّهيلي، نتائج الفكر، ص: 140.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 311.

بِناءً، والسَّماءُ سَقْفَهُ؛ فمَن كانَ في أحَدِهما؛ صَحَّ نِسْبَتُهُ إلى أنَّهُ في كُلٍّ مِنهُما: الأسْفَلُ بِالإقْلالِ والأعلى بِالإظْلالِ، أي: في السَّماواتِ والأرْضِ، ولا سيَّما وقَدْ جَعَلَ لِكُلٍّ مِنهُما تَسَبُّبًا في ذَلِكَ بِما أوْدَعَهُما مِنَ الجَواهِرِ، وأنْشَأ عَنْهُما مِنَ العَناصِرِ[1]، على أنَّهُ قَدْ يَكونُ المُرادُ مِنَ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِه: ﴿فِيهِمَا﴾ ظَرْفيَّةَ المَجْموعِ لا الجَميعِ، أيْ: ما بَثَّ في مَجْموعِ الأرْضِ والسَّماءِ مِن دابَّةٍ، فالدّابَّةُ إنَّما هي على الأرْضِ، ولَمّا ذُكِرَتِ الأرْضُ والسَّماءُ مُقْتَرِنَتَيْنِ، وجاءَ ذِكْرُ الدَّوابِّ؛ جُعِلَتِ الدَّوابُّ مَظْروفَةً فيهما؛ لأنَّ الأرْضَ مَحوطَةٌ بِالسَّماواتِ ومُتَخَيَّلَةٌ مِنها، كالمَظْروفِ في ظَرْفِه، والمَظْروفُ في ظَرْفٍ مَظْروفٌ في ظَرْفِ مَظْروفِه، كَما قالَ تَعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ [الرحمن: 19]، ثُمَّ قالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن: 22]، واللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ يَخْرُجانِ مِن أحَدِ البَحْرَيْنِ، وهو البَحْرُ المِلْحُ لا مِنَ البَحْرِ العَذْبِ[2].

مَعْنَى ﴿مِن﴾ ودَلالَتُها في: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ باسْتِعْمالِ ﴿مِن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهيَ هَهُنا بَيانيَّةٌ تُفيدُ العُمومَ، فأفادَتْ عمومَ ما بَثَّ اللّهُ في السَّماواتِ والأرْضِ مِنَ الدَّوابِ، وهَذا العُمومُ بِما يُفيدُهُ مِنْ كَثْرَةِ مَخْلوقاتِ اللّه تعالى وما بينَهما مِنَ التَّوازُنِ والاطِّرادِ والانسِجامِ خَيْرُ شاهِدٍ على كَمالِ الخالِقِ ﷻ.

كَـثْرَةُ المَخْلوقاتِ واطِّـرادِ نِظامِها مِـنْ أدِلَّـةِ كَـمالِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿دَآبَّةٍ﴾ والغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِها:

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بكَلِمَةِ نَكِرَة ﴿دَآبَّةٍ﴾؛ لإفادَةِ العُمومِ، وعَبَّرَ بِهَذا اللَّفظِ دونَ غَيْرِه؛ لأنَّهُ أوسَعُ في الدَّلالَةِ؛ إذِ الدّابَّةُ ما يَدُبُّ على

شُـمولُ التَّعْبيرِ بِـلَـفْـظِ (دابَّـةٍ) لِجَـميعِ أنْـواعِ الـخَـلْـقِ، ما عَرَفْناه مِنْهُ، وما لم نَعْرِفْهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 36، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97، وأشارتْ بعض الدِّراساتِ الحديثَةِ لوجود أنواعٍ مِنَ اللؤلؤ تُسْتَخْرجُ مِنَ بعض الأنهار العذبة في بَعْض المناطق في أوروبا وآسيا، انظر: لجنة القرآن والسّنة في المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية في القاهرة، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 645.

الأرْض، ويَشْمَلُ الطَّيْرَ؛ لأنَّ الطَّيْرَ يَمشي؛ إذا نَزَلَ، وهو مِمّا أُريدَ في قَوْلِه هُنا: ﴿فِيهِمَا﴾، أيْ: في الأرْضِ وفي السَّماءِ، أيْ: بَعْضِ ما يُسَمّى بالسَّماءِ، وهو الجَوُّ، قالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: 79]، فإطْلاقُ الدّابَّةِ على الطَّيْرِ باعْتِبارِ أنَّ الطَّيْرَ يَدُبُّ على الأرْضِ كَثيرًا لالتِقاطِ الحَبِّ وغَيْرِ ذَلِكَ، وأمّا المَوْجوداتُ الَّتي في السَّماواتِ العُلا مِنَ المَلائِكَةِ والأرْواحِ؛ فلا يُطْلَقُ عَلَيْها اسْمُ دابَّةٍ، وجَوَّزَهُ بعضُهُم؛ إذْ يَجوزُ أنْ تَكونَ في بَعْضِ السَّماواتِ مَوْجوداتٌ تَدُبُّ فيها، فإنَّ الكَواكِبَ مِنَ السَّماءِ[1]، فقَدْ ثَبَتَ في صِحاحِ الأحاديثِ ما يَدُلُّ على وُجودِ الدَّوابِّ في السَّماءِ مِن مَراكِبِ أهْلِ الجَنَّةِ وغَيْرِها، بَلْ لا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ في كُلِّ سَماءٍ حَيَواناتٌ ومَخْلوقاتٌ على صوَرٍ شَتّى وأحوالٍ مُخْتَلِفَةٍ، لا نَعْلَمُها، ولَم يُذْكَرْ في الأخْبارِ شَيْءٌ مِنها، فقد قالَ تَعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: 8][2].

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ﴾:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على قَوْلِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ لبَيانِ أنَّهُ تعالى - بِقُدْرَتِه على خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وما فيهما عَنْ عَدَمٍ - قادِرٌ على إعادَةِ خَلْقِ بَعْضِ ما فيهما للبَعْثِ والجَزاءِ؛ لأنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ سَواءٌ في جَوازِ تَعَلُّقِ القُدْرَةِ به، فكَيْفَ تَعُدّونَهُ مُحالًا؟ فالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ في جُمْلَةِ الاعتِراضِ لإدْماجِ إمكانِ البَعْثِ في عَرْضِ الاستِدْلالِ على عَظيمِ قُدرَةِ اللّه وعلى تَفَرُّدِه بالأُلوهيَّةِ[3].

الإحْياءُ والجَمعُ بَعْدَ الخَلْقِ والبثِّ، مُتَصَوَّرٌ عَقْلًا، وهو أهْوَنُ على الله تعالى

سرُّ الوَصْلِ بِالمُضْمَرِ (هوَ):

افْتَتَحَ البَيانُ القُرْآنيُّ الجُمْلَةَ بَعْدَ الواوِ بالضَّميرِ (هوَ)؛ عَطْفًا على ما سَبَقَ، ويَجوزُ لُغَةً التَّعْبيرُ بلَفْظِ الجَلالَةِ، لَكِنَّهُ أرادَ أنْ تَرْتَبِطَ هَذِه

في تَعالُقِ الجُمْلَتَينِ بَيانٌ للتَّلازُمِ بينَ الخَلْقِ والبَثِّ، ثُمَّ الإحْياءِ والجَمعِ للحِسابِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 396، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.

الجُملةُ مَعَ الجُملَتَينِ السّابِقَتَين؛ لِما بَيْنَها مِنْ تَعالُقٍ، فإنَّ هَذِهِ الجُملَةَ مُتَّصِلَةٌ بِما أوْرَدَهُ سُبْحانَهُ مِنْ تَمامِ القُدْرَةِ على إنْزالِ الغَيْثِ، وخَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وبَثِّ المَخْلوقاتِ، ثُمَّ الإحياءِ والبعثِ، فالضَّميرُ يَدْعَمُ العَلاقَةَ التَّرْكيبيَّةَ بَيْنَ الجُمَلِ في بَيانِ اقْتِدارِ اللهِ ﷻ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ على الخَبَرِ ﴿قَدِيرٌ﴾:

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ على الخَبَرِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ إذِ الأصْلُ (وهوَ قَديرٌ على جَمعِهم)، وذَلِكَ لأهَمِّيَّةِ قَضيَّةِ الجَمعِ للحِسابِ؛ إذْ هيَ مَناطُ الفائِدَةِ، والكَلامُ بِها أعلى؛ لأنَّ هذه الآيَةَ العظيمةَ التي هي خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، تَتَضَمَّنُ حَديثَ البَعْثِ ودَليلَهُ، فهي مِنْ بَراهينِ الأُلوهيَّةِ، فضْلًا عَنْ أنَّها إخْبارٌ عَنِ البَعْثِ مَصْحوبًا بِالدَّليلِ، ثمَّ هي أيضًا تتضمَّنُ ما لا يَخفى من التَّهديدِ والوَعيدِ[1]، وكَذَلِكَ لَمّا كانَتِ الأدِلَّةُ والبَراهينُ السّابِقَةُ على كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ تُشاهِدُها العُيون، جاءَ في هَذِهِ الآيَةِ بِدَليلٍ غَيْبيٍّ للتَّذْكيرِ بِجانِبِ البَعْثِ، وقَدَّمَهُ؛ ليَكونَ أقْرَبَ للعُقولِ الصحيحَةِ.

في التَّقْديمِ دَلالَةٌ على الاهتِمامِ بِأمرِ البعْثِ؛ إذْ هوَ مَناطُ الفائِدَةِ

مَعْنَى ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالَتُها في: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾:

جاءَتْ ﴿عَلَىٰ﴾ هَهُنا على أصْلِ مَعْناها، الَّذي هوَ إفادَةُ الاستِعْلاءِ، فدَلَّتْ على اقْتِدارِ اللهِ تعالى على أمرِ الجَمعِ كَما هوَ قادِرٌ على أمرِ الخَلْقِ والبَثِّ، فكَما لَم يَتَعَذَّر عَلَيْه خَلقُهُ وتَفريقُهُ، لنْ يَتَعَذَّرَ عَليْه بَعْثُه وحِسابُهُ[2].

اسْتِعْلاءُ اللهِ تَعالى على خَلْقِهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ

بَلاغَةُ الطِّباقِ بينَ البثِّ والجَمعِ:

جاءَ الطِّباقُ بينَ لَفْظِ البَثِّ في: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، ولَفْظِ الجَمعِ في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ لِتَمامِ إيضاحِ طَلاقَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ على الخَلْقِ والبَعْثِ، فكُلُّ قَضيَّةٍ مِنهُما بحَدِّ ذاتِها تَدُلُّ على جانِبٍ

الطِّباقُ بينَ البثِّ والجَمعِ يُحَرِّكُ الأذْهانَ للنَّظَرِ والاعتِبار

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 158.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 116.

مِنْ جَوانِبِ عَظَمَةِ الخالِقِ تعالى، إلّا أنَّ الجَمعَ بَيْنَهُما في سياقٍ واحِدٍ على طَريقَةِ الطِّباقِ يوقِظُ الأذْهانَ، ويُثْري الوِجْدانَ، ويَحُثُّ على التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في كَمالِ العَظَمَةِ الإلَهيَّةِ، وهو إلى جانِبِ ذَلِكَ يَملَأُ النَّظْمَ الجَليلَ حُسْنًا وجَمالًا، ويَزيدُه رَوْنَقًا وبَيانًا؛ لأنَّ جَمْعَ ما بُثَّ وتَفَرَّقَ وانتَثَرَ وتَكاثَرَ أصعَبُ، ولِهَذا تَرَى التَّلاؤُمَ بَينَ الجُملَتَينِ، وأنَّ كُلًّا مِنهُما مُمَسِّكَةٌ بِالأُخرَى[1].

الغَرَضُ مِنْ إسْنادِ الجَمعِ إلى ضَميرِ العُقَلاء (هُم):

وإنَّما قالَ: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾، ولَم يَقُلْ: على جَمعِها؛ لأجْلِ أنَّ المَقْصودَ مِن هَذا الجَمعِ المُحاسَبَةُ، فكَأنَّهُ تَعالى قالَ: وهو على جَمعِ العُقَلاءِ - إذا يَشاءُ - قَديرٌ[2]، وقيلَ لِلسَّمَواتِ والأرْضِ وما فيهما على التَّغْليبِ، وقيلَ: لِلدَّوابِّ، وقَدْ وَرَدَ في الأحاديثِ أنَّ بَعْضَ الدَّوابِّ تُحْشَرُ لِلانتِصافِ مِمَّنْ ظَلَمَها[3]، ولَعَلَّ القَولَ بِأنَّهُ لِلعُقَلاءِ هوَ الأوْلى[4].

الجَمعُ إمّا للعُقَلاءِ ولِغَيْرِهم، والضَّميرُ للتَّغْليبِ، وإمّا للعُقَلاءِ وحْدَهُم

بَلاغَةُ الاعتراضِ في: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾:

جاءَ البَيانُ القُرْآنيُّ الجَليلُ بأداةِ الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾ دونَ أداةِ الشَّرْطِ (إنْ)؛ لإفادَةِ اليَقينِ في قضيَّةِ البَعْثِ والجَمعِ، فهي قَضيَّةٌ حَتْميَّةٌ في مَشيئَةِ اللّه تعالى[5]، فقُدْرَتُهُ ومَشيئَتُهُ صالِحانِ لِذَلِكَ، ويَتَوَقَّفُ وُقوعُهُ على وُجودِ الخَبَرِ الصّادِقِ، وقَدْ عَلِمَ أنَّهُ قَدْ تَواتَرَتْ أخْبارُ المُرْسَلينَ وكُتُبُهُم بِوُقوعِه[6]، والتَّعْبير بالشَّرْطِ هُنا مُجَرَّدٌ عَن تَضَمُّنِ الشَّرْطيَّةِ، فالتَّقْديرُ: حينَ يَشاءُ في مُسْتَقْبَلِ الزَّمانِ، وهو مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، ولَيْسَ مُتَعَلِّقًا عِنْدَ أكْثَرِ

قضيَّةُ البَعْثِ والجَمعِ قَضيَّةٌ حَتْميَّةٌ في مَشيئَةِ اللهِ تعالى

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 158.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 600.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 314.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 759.

المُعْرِبينَ بِـ﴿قَدِيرٌ﴾، لِفَسادِ المعنى[1]، وهَذا الظَّرْفُ إدْماجٌ ثانٍ لإبْطالِ استِدْلالِهم بِتَأخُّرِ يَوْمِ البَعْثِ على أنَّهُ لا يَقَعُ كَما حُكِيَ عَنْهم في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: 51][2].

دَلالَةُ الإخْبارِ باسمِ الله ﴿قَدِيرٌ﴾ والغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِه:

كَمالُ قُدْرَةِ الله وعَظَمَتُها، فلا يَحولُ دونَ نَفاذِ مَشيئَتِه شيءٌ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ خَتْمَ الآيَةِ بالإخْبارِ عَن تَمامِ قُدْرَةِ اللّٰه ﷻ بِصِفَةِ القُدْرَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ وذَلِكَ لِمُناسَبَةِ السِّياقِ؛ إذِ القَديرُ تعالى هو كامِلُ القُدْرَةِ، بِقُدْرَتِه أوْجَدَ المَوْجوداتِ، وبِقُدْرَتِه دَبَّرَها، وبِقُدْرَتِه سَوّاها، وأحْكَمَها، وبِقُدْرَتِه يُحْيي، ويُميتُ، ويَبْعَثُ العِبادَ لِلْجَزاءِ، الَّذي إذا أرادَ شَيْئًا؛ قالَ لَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: 117]، وبِقُدْرَتِه يُقَلِّبُ القُلوبَ، ويَصْرِفُها على ما يَشاءُ، ويُريدُ[3]، وجاءَ الخَبَرُ نَكِرَةً للتَّعْظيمِ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الغَيْث والمَطَر:

الغَيْثُ والمَطَرُ

الغَيْثُ: الحَيا النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، وهوَ كَذَلِكَ الكَلَأُ يَنْبُتُ مِنَ المَطَرِ، وسُمِّيَ المَطَرُ غَيْثًا؛ لأنَّهُ يُغيثُ الخَلْقَ[4]، وأمّا المَطَرُ؛ فهو كَذَلِكَ الماءُ المنسكبُ من السَّحابِ، ولَكِنَّ مَعْناهُ المحوريَّ انْسِكابٌ أوِ انْحِدارٌ بِقوَّةٍ أوْ سُرْعَةٍ مَعَ استِرْسالٍ[5]؛ ولِذا فقَدْ خصَّصهُ الاستِعْمالُ القُرْآنيُّ لِمَعاني العَذابِ غالبًا، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: 84]، فالصِّيغَةُ القُرْآنيَّةُ

(1) السمين، الدّر المصون: 9/ 554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 947.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (غيث)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 28.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).

اختَصَّت المَطَرَ لا الغَيْثَ؛ لأنَّهُ أقْوَى، وأغْزَرُ تَدَفُّق مياهٍ، فناسَبَ عُقوبَةَ المُجْرِمينَ، وقَدْ ذَكَرَهُ القُرْآنُ على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ في قَوْلِه: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32]، وبِهَذا المَعْنَى سائِرٌ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ، كَقَوْلِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 74].

واسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الغَيْثَ في الحديث على نِعْمَةِ اللّه في الأرْضِ، فقالَ دالًّا البَشَرَ على سُنَّتِه في الكَوْنِ في تَرَعْرُعِ النَّباتِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ لأنَّ النَّباتَ يُريدُ رَحْمَتَهُ الَّتي تَتَجَلَّى في الماءِ الخَفيفِ، فيَنْتَعِشُ، ولِذَلِكَ لَم يَذْكُرِ المَطَرَ الَّذي يُغْرِقُهُ[1]، وكَقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: 34]، ولَم تفرِّقِ السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ بينَ اللَّفظينِ.

القنوط واليأس:

القُنوطُ: الإياسُ من الخير[2]، وهوَ يَدُلُّ على انْقِطاعِ الأمَلِ بالكُلِّيَّةِ؛ إذ لا يُقال: قَنَط إلّا إذا اشتدَّ يَأسُهُ مِنَ الشَّيْءِ[3]، وقيلَ اليَأسُ: هوَ قَطْعُ الرَّجاءِ والأمَلِ مِنْ تَحْقيقِ أمرٍ مُعيَّنٍ، وهوَ شُعورٌ يَنْشَأُ في القَلْبِ والعَقْلِ، وأمّا القُنوطُ؛ فهوَ تَأثيرُ اليَأسِ عِنْدَما يَظْهَرُ على بَدَنِ الإنْسانِ بِشَكْلٍ ظاهرٍ في مَلامِحِه وتَصَرُّفاتِه[4].

القُنوط ظُهور علاماتِ اليأسِ على بَدَنِ الإنْسانِ

البَثّ والنَّشْر:

البَثُّ هوَ تَفْريقُ الشَّيْءِ وإظْهارُهُ، وبَثَّ الشَّيءَ والخَبَرَ يَبُثُّه: فرَّقه، فتَفَرَّقَ، وأصْلُهُ: نَشْرُ ما كانَ مُجْتَمِعًا مُنْضَمًّا وتَفْريقُهُ، ووضْعُ الأشْياءِ في أمكِنَةٍ كَثيرَةٍ، وقولك: بَثَّ، يُفيدُ تَفْريقَ أشْياءَ كَثيرَةٍ في

البَثُّ تَفْريقٌ في أماكِنَ كَثيرَةٍ مُتَباينَةٍ، وأمّا النَّشْرُ؛ فهوَ البَسْطُ

(1) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 44.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).
(3) النحاس، معاني القرآن: 6/ 314.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 5 - 6.

مَواضِعَ مُخْتَلفَةٍ مُتَباينَةٍ، وإذا فرَّقَ بَينَ شَيْئَينِ؛ لَم يَقلْ: بَثَّ[1]، وأمّا النَّشْرُ؛ فهو تفرُّقٌ ببسطٍ وامتدادٍ نُشوءًا أو إيقاعًا[2]، ولا يَلْزَمُ مِنهُ التَّفْريقُ في أماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَباينَةٍ، وعليه فالبثُّ أخَصُّ مِنَ النَّشْرِ؛ لأنَّ فيه زيادَةً عَلَيْه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 151، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بثث - بثبث)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 97.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"